العنوان: الهوية "مقاربات مفاهيمية"

الكاتب:عماري فرحات
الجامعة : محمد لمين دباغين
الولاية: سطيف
الدولة: الجزائر

الملخص:
تهدف هذه المداخلة إلى تتبع سيرورة مفهوم الهوية بمقاربة أركيولوجية جينيالوجية تستقصي المنازع الكبرى التي تشكل فيها المفهوم وتموضعاته المختلفة، بداية من الفضاء الغربي وكيف رسمت الهوية مسارها من اللحظة السقراطية إلى غاية العصر المعاصر واقتحامها ميدان علوم الانسان، ثم تتبعنا مقاربات مجموعة من الأكاديميين العرب لموضوع الهوية وكيف شكلت هاجسا للإنسان العربي في ظل التحديات المعاصرة، ختاما بطرح الموضوع بنوع من الاستشكال الفلسفي الذي يجد نفسه على ساحة الاشتغال الفكري والمعرفي اليوم.
الكلمات المفتاحية:
الهوية، المفهوم، الذات، الهوية الثقافية، ....

Abstract:

The aim of this intervention is to trace the process of the concept of identity to the approach of a genealogical ideology that explores the great conflict in which the concept and its different positions form, beginning with the western space, and how the identity draws its path from the Socratic moment to the contemporary era and its penetration into the field of human sciences, and then follows the approaches of a group of Arab academics to the subject of identity And how it was an obsession for the Arab man in the face of contemporary challenges, concluding with the subject of a kind of philosophical question, which finds itself in the arena of intellectual activity and knowledge today.
Key words:Identity, Concept, Self, Cultural identity.....

مقدمة:

إنّ البحث في موضوع الهوية كان دَيدَن الكثير من المفكرين والفلاسفة والمشتغلين بالشأن الثقافي والعالمي، لما لهذا الموضوع من صلة وثيقة بالانسان وتفاعلاته في البيئة الاجتماعية أو من حيث ترجمة كينونته ضمن الكلي والكوني، حضوراً محليا خاص أو حضورا تشاركيا ضمن نطاق الجماعة البشرية، لكن المفهوم "الهويّة" بتدرجه في قطاعات معرفية وفي مجالات بحثية متشابكة خضع على مرّ العصور إلى زحزحات وهجرات ذات طابع تأويلي أحدث له نوع من السكون والحصر في زوايا مغلقة، ونحن في عالمنا المعاصر أحوج إلى البحث عن دلالة المفاهيم واستكناه حقائقها والنبش في الأرضية المعرفية التي تكوثر فيها المفهوم، وبالتالي وللضروة المعرفية أن نقف على مفهوم الهوية في منابتها الأصلية وفي استشكالاته المعرفية ضمن محاضنه الأولى والآفاق الوجودية التي تداولته.

- ما مفهوم الهوية؟ وما هي الدلالات التي اكتستها في الفضائين الغربي والعربي؟
- لماذا نعيد طرح سؤال الهوية اليوم؟

1. الهوية / جينيالوجيا[1] المفهوم:

تستخدم كلمة الهوية في اللغة للدلالة على فعل المماهات، أي الاعتراف بوحدة الماهية، يقال على فرد (أو على كائن يمكن تشبيهه بفرد في هذا المستوى) عندما يقال هو نفسه أو "متماه مع ذاته" في مختلف لحظات وجوده على الرّغم من التغيرات الهائلة أحيانا التي يمكن حدوثها له أحيانا.[2]

"واسم الهوية مرادف لاسم الهوية والوجود، قال الفرابي "هوية الشيء، وعينيته وتشخصه وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، وقولنا أنه هو اشارة إلى هويته وخصوصيته، ووجود المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك، وتكتسي الهوية عند القدماء عدّة معان، وهي التشخص، والشخص نفسه والوجود الخارجي.

والهوية عند بعضهم هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق كمّا عرفها الجرجاني.

وللهوية عند المحدثين أربعة معان:

1) تطلق الهوية على الشيء من جهة ما هو واحد، كقولنا: إنّ الشيخ الرئيس هو أبو علي ابن سينا، وتسمى هذه الهوية بالهوية العددية Identité numérique.
2) وتطلق الهوية على الشخص (أو على الموجود المشبه بالشخص) إذا ظل هذا الشخص ذاتا واحدة رغم التغيرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده ومنه قولنا هوية الأنا، وهوية الفاعل وتسمى هذه الهوية بالهوية الشخصية Identité personnelle.
3) والهوية صفة موضوعين من موضوعات الفكر إذا كان رغم اختلافهما في الزمان والمكان متشابهين في كيفيات واحدة: وتسمى هذه الهوية بالهوية الكيفية (Identité qualitative) أو الهوية النوعية (Identité spécifique).
4) والهوية علاقة منطقية بين شيئين متحدين كالهوية الرياضية أو المساواة الجبيرة رغم اختلاف قيم الحروف التي تتقوم منها.

فلسفة الهوية Philosophie de l'identité، يطلق اصطلاح فلسفة الهوية على مذهب (شيلينغ) القائل بوحدة الطبيعة والفكر، ووحدة المثل الأعلى والواقع، وكل فلسفة لا تفرق بين المادة والروح، ولا بين الذات والموضوع، فهي فلسفة من هذا القبيل، لأنها تجمع بينهما في وحدة لا تنفصل وترجعهما إلى واحد هو المطلق"[3].

يطلق في المنطق مبدأ الهوية على مبادئ العقل إلى جانب مبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع، ويقصد به: ما هو هو ويعبر عنه "أ" هو "أ"، أي حقيقة الشيء لا تتغير (الثبات) أي الشيء لا يكون غير ذاته.

هذه التقاطعات اللغوية لمفهوم الهوية تحيلنا إلى المعنى الدلالي الذي تتموضع فيه حسب السياق الذي تنساب فيه، فمن الماهية وفعل المماهات مع نفسه ككينونة لا تقبل الإنفصال، إلى الوحدة المتفردة التي لا تقبل الاشتراك إلى التشخص العيني للذات بما هي حقيقة ثابتة لا تتغير، غير أنّ هذه الدلالات تكتسي بعدًا أنطولوجيا ومنطقيا في إنوجادها المفهومي، والذي يستدعي بدوره القيام بتتبع أركيولوجي لتاريخ مفهوم الهوية وتداخله مع علوم الإنسان مع استحضار النماذج المعرفية التي تكون فيها المفهوم وتشكل.

2. اِرهاصات تشكّل المفهوم:

–يشير ابن منظور في لسان العرب أنّ الهوية لغة من هوى يهوي هوّة ."والهوية تصغير هوّة، وقيل: الهوية بئر بعيدة المهواة "أي (الحفرة البعيدة القعر) [4] ،رغم أنّ الهوية Identité ليس مصطلح عربي إلاّ أنّ الدلالة المعجمية كما بينها ابن منظور تحيل إلى عمق المفهوم في حد ذاته كحفرة بعيدة القعر، يستحيل الإمساك بمفهوم مطلق ومتكامل لها، لأنه يرتحل من قطاع معرفي إلى آخر، ففي الفكر الغربي نجد إنزياح المفهوم وتشكله وفق مسار كرونولوجي من الإغريق إلى العصر المعاصر.

منذ أن طالعنا سقراط بمقولته المشهورة المكتوبة على مبعد دلفي "إعرف نفسك بنفسك" والتي توحي في دلالتها أنّ أي انسان لا يستطيع أن يعرف ماهيته ولا يستطيع أن يستكنه أغوار ذاته وأعماقها إلاّ بنفسه وذاته. فمعرفة هوية الإنسان لا تتأتى إلاّ بمعرفة ذاته ضمن كل هذه المدارات المعرفية والاجتماعية والبيئية التي نشأ فيها، فإدراك هوية الإنسان نفسها وذاتها معناه القيام بمغامرة حاسمة وخطرة، لأن الذات لا تتقوم إلاّ بفعل خليط غير متجانس من بيئة وثقافة ومجتمع وفلك معرفي تشكلت في نطاقه، وهنا نلحظ تطابق الهوية مع الذات في المدلول السقراطي باعتبارها بؤرة للمعرفة ومنتجة لها، وانسحبت هذه المتتالية من اللحظة اليونانية لتجد نفسها في العصور الحديثة مكتملة مع ديكارت في الكوجيطو "أنا أفكر، إذن أنا موجود".

إن إنبعاث المفهوم الذاتي للهوية التي طبعت التفكير الفلسفي من اليونان إلى غاية العصور الحديثة والتي شكلت الحدود المعرفية للعقل الغربي في هوية ثابتة عرفت ارتجاجا في مسلماتها مع ظهور العلوم الإنسانية، بفعل التطورات التي اعقبت إنفجار الثورة العلمية وتلاحمها مع شتى نطاقات المعرفة البشرية.

لقد أثار الفيلسوف النمساوي سيغموند فرويد رجة عنيفة في تصور الانسان لنفسه كهوية واعية لذاتها عندما اكتشف مناطق مظلمة في ساحة الشعور الإنساني وقدّمت أبحاثه المغمورة رؤية جديدة ونظرة مغايرة لمفهوم الهوية بالتحامها مع النفس الإنسانية الشائكة والمتشعبة، وتُبنت أعماله وتطورت على يد تلاميذه أمثال اريكسون وابنته آنا فرويد.

بالنسبة لايركسون الذي حاول أن يستكمل نظرية التحليل النفسي الفرويدية ويمدها إلى المحيط الذي يعيش فيه الفرد ومدى تأثيره عليه، بالتفكير في موضوع الهوية، فلقد أظهر ايركسون بمهارة تحليلية فائقة نمو الهوية في كل مرحلة من مراحل دورة الحياة وأزماتها المرتبطة بها، وشغلته قضية الإستبداد وحلل نمو الشخصية المستبدة عندما تتوفر لها مجموعة من العوامل التربوية والمحيطة مركزا على اللحظة التاريخية في إظهار وطغيان هذه الشخصيات وتلاعبها بمصير أتباعها المتحمسين"طيبي " النية أحيانا [5].

إنّ زحزحة مفهوم الهوية إلى مجال علم النفس من خلال أعمال أيريك اريكسون يكشف بعمق تلك الإزدواجية المتغلغلة في نفسية الإنسان والتي تميل إلى فهم سطحي لمخرجات الذات الشعورية وأزماتها، فغالبا ما يتحدث ايركسون عن شعور بالهوية من أجل التحديد عن نظريات الذات الميكانيكية بشدة لعلم النفس الأكاديمي، وعليه يذكر ايركسون في "دورة الحياة": يقوم الإحساس الواعي، بامتلاك هوية شخصية على ملاحظتين اثنتين متلازمتين: الإدراك المباشر للإستواء والاستمرارية في الزمن وما يرتبط بذلك من إدراك بأن يتعرف الآخرون أيضا على هذا الإستواء والإستمرارية فإن ما نريد هنا تسميته بهوية الأنا، يقصد به أكثر مجرد من حقيقة الوجود، المكتسب من خلال الهوية الشخصية، إنها نوعية الأنا Ego-quality لهذا الوجود[6].

بمعنى أن الهوية بولوجها مضمار علم النفس تخلت عن ملحقاتها المشوبة بها ميتافيزيقيا ومنطقيا من أمثال الوحدة، والممثالة والتماهي وأصبحت تأخذ دلالات جديدة مثل الإستواء والاستمرارية والإندماج والاختلاف والإبداع ونوعية الذات في تعاطيها لهذا الوجود.

3. الهوية في الفكر العربي المعاصر"نماذج منتخبة"

لقد ارتبط مدلول الهوية ومفهومها في الفكر العربي المعاصر بقضايا التراث والحداثة والقومية العربية والاشكالات المتنامية إزاء التحديات المفروضة على الإنسان العربي بعد صدمة الحداثة وما تلاها من عولمة وأمركة العالم والمخاطر التي تهدد الكينونة الثقافية والحضارية للعالم العربي الاسلامي.

يعرفها المفكر المصري حسن حنفه بقوله" الهُوية خاصة بالإنسان والمجتمع الفرد والجماعة. هي موضوع انساني خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون بين الواقع والمثال، بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل" [7].

إنّ الهوية ليست معطى ذاتي وإنما هي معطى إنساني واجتماعي ونفسي وثقافي ينفتح على الفرد والجماعة ويشكل نسيج إنساني خالص تتداوله الجماعة وتساهم فيه جميع الخصائص من تاريخ ولغة ودين وثقافة وقومية.

ويشير محمد عابد الجابري إلى الهوية انطلاقا من سؤاله ما العربي؟ السؤال الذي يحدد الهوية العربية بالتالي فالأجوبة تكون متعددة ومختلفة، بهذه الصورة وهو من الناحية المبدئية شيء طبيعي تماما، ذلك لأن الأمر يتعلق بسؤال الهوية والهوية وجود وماهية، وفي المجال البشري، مجال الحياة الاجتماعية على الأقل، الوجود سابق للماهية دوما، الشيء الذي يعني أنّ الماهية ليست معطى نهائيا، بل هي شيء يشكل شيء يصير. [8]

وتتحدد الهوية والتي تمثل صميم الثقافة العربية الإسلامية من خلال" ذلك المركب المتجانس من الذكريات، والتصورات، والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات التي تحتفظ لجماعة بشرية تشكل أمة، أو ما في معناها، بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات، بفعل ديناميكيتها الداخلية وقابليتها للتوال والأخذ والعطاء [9].

إنّ الهوية ليست شيئا ثابتا وإنما شيء يتشكل حسب الجابري والهوية العربية الإسلامية هي نتاج تلاحم العروبة والإسلام والثقافة لتشكيل الوحدة القومية للوقوف أمام الاختراق الثقافي والاستعماري الذي يهدد هويتنا ويضربها في الصميم.

وينظر عبد الوهاب المسيري إلى الهوية من خلال تصوره للنماذج المعرفية التي تشكل وعي الإنسان وتحدد طريقة تفكيره حسب نموذج إدراكي هو عينه هوية الانسان، ويقول أننا تلقينا مفهوم الهوية من خلال أطر النموذج المادي الذي يبتر الغايات القصوى للعمل الإنساني ويعدمه في مصالح شخصية، وهذا النموذج حسب المسيري يودي بالهوية تماما، لأنه لا يتعامل مع الوقع من خلال معايير مادية وهي معايير عاجزة بطبيعتها عن رصد الهوية في كل تركيبتها، وقد أدى هذا المنهج إلى تعريف الإنسان بإعتباره "الانسان الطبيعي" بمعنى

أنه انسان يتسم بسمات عامة أضيفت إليها الحضارة، أي إنها ليست أصيلة فيه، وبذلك تتحول الهوية إلى مسألة مضافة آليا، وهكذا يصبح المشروع الإنساني من منظور الإستنارة هو العودة إلى الإنسان الطبيعي [10].

بمعنى أنّ الهوية على غرار تركيبتها الغنية والمشتركة انسانيا ومحليا، لا يمكننا تصورها جوهرا ثابتا كما صدرته لنا النظرة المادية لها.

4. ما معنى أن نفكر في الهوية اليوم؟

إن الواقع المتذبذب الذي نعيشه اليوم يشي بالكثير من التمظهرات المأزومة التي تنخر البنى الإجتماعية للدول خاصة دول العالم الثالث وما تعيشه من اكتساح وغزو لثقافة العولمة والإمبريالية، هذه الأخيرة تعتبر بمثابة شكل مهذب من الإستعمار القديم التي تحاول تنميط العالم على أفكارها وأيديولوجيتها المبسوطة بفرض أشكال معينة من التسطيح الثقافي من خلال الشركات المتعددة الجنسيات ووسائل التكنولوجيا المعاصرة، بالرغم من أنّ العولمة استطاعت أن تحقق قفزة هائلة في التقارب وخلق التنوع الثقافي وتبادلها إلاّ أنها تستبطن في داخلها مشروع كولونيالي بصيغة جديدة كالقضاء على الخصوصيات الثقافية للشعوب وضمها تحت غطاءها وفق منطق القوة والاستيلاب الثقافي على شكل ثقافة واحدة وعالم واحد تتحكم فيه قوى عظمى.

هذا الخوف من فقدان الهوية نتيجة إكتساح العولمة لكل أشكال الحياة الاجتماعية والثقافية والذي يهدد بدوره الدول الوطنية ويضعها على محك الصراع بين الحفاظ على هويتها الأصلية وبين الذوبان في ثقافة الآخر وبالتالي فتح كل الاحتمالات على التصدع الإجتماعي والأزمات الناتجة على مأزق الهوية وتصاعد وتيرة الإثنيات والأعراق في الدولة الواحدة، وهو ما يستدعي في هذا المقام الوقوف على تعريف للهوية الثقافية إنها صورة مثالية تكونها جماعة بشرية معينة عن نفسها، مقارنة بجماعات أخرى، وهذه الصورة هي السبيل إلى تعريف الذات من خلال تاكيد ما يميزها من ذوات أخرى، إن الشعور بالإنتماء إلى هوية ثقافية معينة، هو حاجة نفسية واجتماعية ضرورية لا غنى عنها بالنسبة إلى أي إنسان يعيش في هذا العالم؛ فهذا الإنتماء هو الوسيلة الطبيعية لنمو الذات واثباتها وتفتحهان إذ إن مثل الكائن البشري مثل شجرة، ليس في استطاعته أن ينمو ويعيش حياة عادية إذا لم تكن له جذور ثقافية وأصيلة يتغذى منها [11].

إنّ تحصين الهوية الثقافية لأي مجتمع هو مطية فعالة لحضور الذات وفق أقنومها الثقافي مع الذوات الأخرى ما يمنعها من التشتت والإندثار ويصونها من كل أشكال الإغتراب الهوياتي المعولم.

خاتمة:

نخلص في الأخير بعد تتبعنا للمنابت الكبرى التي تشكل فيها مفهوم الهوية ومقاربته في فضائين مختلفين، إلى مجموع من النتائج نجملها في:

- ✓ إنّ مفهوم الهوية كما استبصرناه جينيالوجيا ببحثنا حول حقيقته المفاهيمة، مقرون أساسا بالمجال التداولي الذي نبتت فيه، فهي تدل على فعل المماهات فلسفيا، وغالبا ما كانت مرادفة لاسم الوجود والوحدة، بالرغم أن هذه الدلالات اكتست بعدا انطولوجيا ومنطقيا.
- ✓ إن مفهوم الهوية مفهوم عميق، رجراج، كثير التمرد على المفهمة، فهو من صنف المفاهيم القلقة بارتحاله من أفق وقطاع معرفي إلى آخر، فمن المفهوم الذاتي الذي طبع بداية من التفكير السقراطي إلى غاية ظهور العلوم الانسانية، أعاد العقل الانساني تصوره حول الهوية وصبغ حولها دلالات جديدة أخرجتها من أقفالها الضيقة إلى مسار الاستمرارية والتشكل والإبداع.
- ✓ ارتبط سؤال الهوية في الفضاء العربي بأسئلة زاحمت العقل العربي بفعل صدمة الحداثة وتبنى المفكرين العرب مقاربات نوعية ومختلفة، تنم على عمق الاشكالية التي تنخر الفضاء العربي والاسلامي، وكأمة تعيش تهديدا في هويتها الحضارية.
- ✓ إن سؤال الهوية في العالم المعاصر أضحى من صنف الأسئلة الضرورية والجديرة التي تبني عليها الشعوب ذاتها، وتحصينها سبيل فعّال لتحاشي التنميط الثقافي والشتت والإغتراب، كما أن بناءها مطية للتعايش مع الذوات الانسانية الأخرى التي تشاركنا الوجود كتجسيد لثقافة العيش المشترك.

الهوامش أو المراجع:

[1]الجينيالوجيا : في الخطاب الفلسفي عموما تعني تتبع أصول موضوع ما أو فكرة، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لظهوره، ونشأته وتطوره، والغاية من ذلك إماّ الرغبة في تبريره إضفاء طابع المعقولية والمشروعية عليه، وإما انتقاده وابراز طبيعته النسبية لغاية الحط من القيمة المعطاة له.

[2]أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة أحمد خليل، ج2، منشورات عويدات، بيروت(لبنان)، 2001، ص 605.

[3]جميل صليبا: المعجم الفلسفي–بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية– ج2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1982، ص 530، 532،531.

[4]أنظر: ابن منظور: لسان العرب، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص170.

[5]بيتر كوزن: البحث عن الهوية "الهوية وتشتتها في حياة ايركسون وأعماله"، ترجمة سامر جميل رضوان، ط1، دار الكتاب الجامعي، الامارات، 2010، ص10.

[6]بيتر كوزن: البحث عن الهوية "الهوية وتشتتها في حياة ايركسون وأعماله"، المرجع السابق، ص96.

[7]حسن حنفي: الهُوية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص، 11.

[8]محمد عابد الجابري: مسألة الهوية، العروبة والاسلام والغرب، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2006، ص10.

[9]محمد عابد الجابري: العرب والعولمة، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1993، ص305.

[10]عبد الوهاب المسيري: الهوية والحركية الاسلامية، تحرير سوزان حرفي، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 145.

[11]عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات "حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة"، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، 2013، ص 145.